العلوم الاسلامية عند العرب(*)

بقلم الباحث التركي

محمد فؤاد كوپرلي

ترجمة

فاضل مهدي بيات

وزارة الاعلام ـ بغداد

ازدهرت العلوم الاسلامية ـ التي نشأت في زمن الخلفاء الراشدين والامويين ـ ازدهارا كبيرا في العصر العباسي ، حيث ادركت عصرها الذهبي في القرنين التاسع والعاشر . واستفادت وبنسبة كبيرة ، من الحضارات القديمة ومن ثقافات وعادات الأقوام التي كانت تقطن الاماكن الواسعة التي انتشر فيها الاسلام . ويمكن تقسيم هذه العلوم الى قسمين رئيسين :

١ ـ العلوم الدينية التي لها علاقة مباشرة مع الاسلام كالقراءة والتفسير والحديث والفقه والكلام والفلسفة والتصوف .

٢ ـ العلوم الدخيلة التي اخذت اصولها من الحضارات الاجنبية والتي ليست لها صبغة دينية كالتاريخ والجغرافيا والرياضيات والهندسة. ونجد معلومات وافية عنها في الموسوعات القديمة والحديثة التي تتعلق بالعلوم الاسلامية كمفاتيح العلوم الخوارزمي ، وموضوعات العلوم لطاش كوبري زاده وكشاف الاصطلاحات للطحاوى . وبالرغم من كثرة الشعب التي يظهر كل واحدة منها موضوعا مستقلا في هذه الكتب ، فان تصنيف ارسطو قد ساد المدارس في الدور الكلاسيكي للحضارة الاسلامية .

ان النتاجات العلمية والفكرية للحضارة الاسلامية قد كتبت في الغالب، من قبل المسلمين عربا وغير عرب وحتى من قبل غير المسلمين كالنصارى واليهود والمجوس . واصبحت اللغة العربية ، كاللغة اللاتينية في اوربا في العصور الوسطى ، لغة الثقافة العامة عصورا عديدة ، ابتداء من كاشغر حتى سواحل المحيط الاطلسي وذلك لكونها لغة القرآن ولغة الدولة الرسمية ولانتشارها بين الطبقات المثقفة لانها لغة الشعر ايضا . ويذكر جرجي زيدان ان الحفاظ والمفسرين ورواة الحديث والفقهاء نشأوا في الادوار المزدهرة الاولى للعلوم الاسلامية . واستمرت هذه الحال في العصر العباسي فيما بعد انتشار وتطور الحضارة الاسلامية وبنفس الصورة وحتى انها ازدادت . ولم تبق للمراكز الصغيرة القديمة التي اسست في طول الصحراء اية اهمية امام المراكز الحضارية الكبيرة التي اسست في العراق وايران وما وراء النهر وسورية ومصر والاندلس . وكانت كتب الفلسفة والمنطق والطب والنجوم الرياضيات تترجم من اصولها الهندية واليونانية الى اللغة العربية . اما الكتب المترجمة من اللغة الفارسية فانها كانت تشمل أكثر ما في تلك التواريخ والروايات التي تتعلق بعادات الاقوام القديمة والتي تشمل فلسفة الادارة والسياسة . ومما يسترعى الانتباه انه رغم ترجمة الكثير من الكتب العلمية والفلسفية من اللغة اليونانية ، لم يترجم أي كتاب ذات مداول ادبي او تاريخي . وكان ميل المسلمين الى علوم الفلسفة والطب والنجوم والمنطق عاملا كبيرا للترجمة منها . ولم تكتسب الكتب الادبية والتاريخية تلك الرغبة نفسها فكانت ترجمتها تتوقف على الجهود الشخصية للمترجمين. ولنبدأ الان بتقديم معلومات مجملة عن العلوم الاسلامية الرئيسة :

التفسير والحديث

كانت العلوم الاسلامية في عهد الخلفاء الراشدين تنحصر في القرآن (القراءة) ، والتفسير والحديث ، ولم تكن مضبوطة او مدونة ، اذ لم تكن هناك اية حاجة الى هذا (الضبط والتدوين) لان الاختلاف في هذه العلوم كان ضئيلا ، اضافة الى ان الذين نشأوا في عهد النبي كان اكثرهم على قيد الحياة . ويستدل من رواية ، ان النبي قد منع من ثبت هذه العلوم والتعبير عنها بطريقة الكتابة ، كما ان الصحابة الذين نشأوا

* هذا المقال نشر ضمن التعليقات والاضافات التي ذيل بها الكاتب (كتاب تاريخ الحضارة الاسلامية) للمستشرق الروسي و . بارتولد . ولم تترجم هذه التعليقات والاضافات مع ترجمة الكتاب الى العربية من قبل حمزة طاهر (دار المعارف بمصر ط ٤ سنة ١٩٦١) .
والبروفيسور محمد فؤاد كوپرلي يعتبر من ألمع كتاب تركيا، لم يبق علما من العلوم الانسانية الا وطرقه فكان بحرا بعيد الاغوار . ولد في استانبول سنة ١٨٩٠ ودرس في مناهلها العلمية . تقلد وظائف عديدة اشغل فيها كرسي الادب والتاريخ في أكثر من معهد وجامعة في تركيا فترة طويلة باستثناء الفترة من ١٩٥٠ـ١٩٥٦ التي تقلد فيها وزارة الخارجية التركية . اصبح عضوا في محافل دولية عديدة وحاز على عدة دكتوراه فخرية من جامعات عالمية عديدة . خلف عدة مئات من المقالات والكتب العلمية . ترجم كتابه (تأسيس الدولة العثمانية) الى العربية .

عليه والتابعين الذين نشأوا على الصحابة ، لم يغيروا هـذا التقليد لانهم اقتنعوا ان هذه المعلومات المضبوطة سـوف تتعرض للتحريف او التغيير . واستمر العرب هكذا في عصر الامويين – الذين كانت دولتهم عربية بدوية في تكوينها – وهم مرتبطون بالتقاليد البدويـة ، فانهم اقبلوا على العلوم بطريقة الحفظ والتلقين في القرن الاول وفي قسم من القرن الثاني للهجرة . ورغم معرفة المسلمين الكتابة في هذه الفترة ، التي جمع فيها القرآن ورتب ، لم يكتب ولاسباب قاهرة شيئـا كالتفسير والحديث والشعر والامثال والوقائع التاريخية ، بل ظلت العلوم تتناقل شفاها من جيل الى آخر .

وبعد جمع القرآن وترتيبه بدىء قبل كل شيء بكتابة التفسير لانه يعتبر ، بطبيعة الحال ، اهم العلوم الاسلامية . ففي الوقت الذي كان النبي على قيد الحياة ، كان يحل كل المشكلات لاي شخص يراجعه عن تفسير اية آية يعسر عليه فهمها ويميز الآية الناسخة من الآية المنسوخة . وبعد ان اتخذ الاسلام شكل الدولة ، اصبحت هناك حاجة الى الانظمة والقوانين فاصبح القرآن مصدرا لها مما ادى الى ان يكتسب التفسير اهميـة اخرى . واعتبر الحفاظ والمفسرون كالفقهاء (رجال القانون) في الازمان المتاخرة . ويعتبر مجاهد بن جبير (ت ١٠١هـ-٧٢٢-٧٢٣م) اول من دون التفسير كتابة ، ثم كتب التفسير من قبل الكثيرين حتى نشـأ بينهـم من ذاع صيته في كتابته كالواقـدي (ت٢١٠هـ-٨٢٥-٨٢٦م) والطبري (٣١٠هـ-٩٢٢-٩٢٣م) . وكان المصدر الوحيد للتفسير في الفترات الاولى هو ماروي بالاسناد عن النبي ثم عن الصحابة او تابعيهم ، وفي هـذه الفترة كان العـرب يراجعون عند الحاجة الداخلين في الديانتين اليهودية والمسيحية قبل اعتناقهم الاسلام فيما يجهلونه مما يتعلق باسرار الخلق ، وكان اكثر هؤلاء من حمير اليمن وحينما اعتنق الكثير من المجوس والصابئة ، الذين كانوا يمتلكون آدابا دينية قديمة ، الاسلام ، تركوا آثارا مهمة على العقائد والتقاليد الاسلامية . وكان المجوس والصابئة واليهود على مستوى علمي عال في كل الميادين وكانوا يعرفون القراءة والكتابة . ولم يترك هؤلاء ، ولعوامل مختلفة ، عاداتهم وتقاليدهم القديمة بسهولة بعد اعتناقهم الاسلام ولهذا السبب كانت الكتب الاولى للتفسير تضم بين دفتيها كذلـك التقاليد التي تتعلق بهذه الديانات القديمة . بيد انه نشأ عقب هذا ، مفسرون استندوا على دراسات جدية فوضعوا كتبا مهمة كابن عطية والقرطبي والزمخشري وذلك بعد نشأة العلوم اللغوية وتطورها وبداية التيارات الفلسفية ونمو قابلية النقد والتمحيص عند العرب . ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل نشأ بينهـم كذلك من قام بشرح وتوضيح الآيات القرآنية مستندا على اسس صوفية ، بعد ان اتخذت تيـارات التصوف مركـزا مهما في العالم الاسلامي .

والحديث شانه شان التفسير في بداية الامر حيث لـم تجد الكتابة طريقا اليه . وكان الصحابة يحلون المشكلات التي لا تحل بالقرآن ، في اية مسالة كانت ، بالاحاديث التي اعتنوا بحفظهـا . غير انه نتيجة للفتوحات تفرق الصحابة ، كل منهم، الى احد الاطراف . ولهذا ، اضطر كل من اراد معرفـة الاحاديث ، السفر الى المراكز الاسلامية المختلفة لسماعهـا من هؤلاء انفسهم فقد كان كل منهم يحفظ في ذهنـه احاديث مختلفة . وفي فترة الفوضى التي اعقبت استشهاد الخليفـة عثمان ظهرت فرق متنوعة في دعوات واعتقادات مختلفة . ورات كل فرقة انها مضطرة الى تقديم الادلة واختلاق الاحاديث لتامين نشر وتقوية دعوتها . ووضعت ، ولاسباب متباينة ، احاديث متنوعة في المسائل السياسية كبحث الخلافة وشـروطها وفي المسائل التي تتعلق بالاعتقادات والاعمال الواجبـة . وهناك في التاريخ من اشتهر بوضع الحديث ، بل ان فيهم من اعترف بذلك . بيد ان معرفة الحديث كانت حاجة جد طبيعية وكبيرة للمسلمين . وبعد ان ولت هذه الفترة وبدات ادوار النقد وبحث الحقائق ، جلبت كثرة الاحاديث التي وضعت فيما بعد،الانظار. وكثرت الدراسات العميقة في هذا المجال فوجدت أساليب دقيقة وقوية حسب الامكان للتاكيد من مدى صدق رواة الحـديث والراوين عنهم . وصنفت الاحاديث بموجب هذه الاساليب ، الى درجات مختلفة واصبحت تذكر باسماء مختلفة كالصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع . وثبتت في نفس الوقت ، كيفية رواية الراوين بعضهم عن بعض ، بشكل الكتابة والقراءة والمناولة والاجازة . وبموجب هذه الاساليب كذلك وضعت بحوث عـن درجة صدق رواة الحديث فصنفت علماء الحديث الى طبقات عديدة كالصحابة والتابعين وتابعي التابعين والمجتهدين وجامعي الحديث والحفاظ والنقلة والشراح ووضعت كتب مختلفـة عنهـم .

ورتب الامام مالك (١٧٩هـ-٧٩٥-٩٦م) – ولاول مـرة – الاحاديث المتفق على صدقها من قبل علماء الحديث والتي تتعلق بالاحكام الشرعية ، على الابواب الفقهية . ومع هذا ، فقد ذكر ان ابن جريج يعتبر اول من كتب في الحديث . ثم بدا ظهور هذا النوع من الكتب تدريجيا ، الى ان ظهر محمد بن اسماعيل البخاري (٢٥٦هـ-٨٦٩-٨٧٠م) الذي رتب ما رواه محدثو الحجاز والعراق والشام ، مما يليق بالاعتماد ، على الابواب الفقهية في كتابه الموسوم (الجامع الصحيح) . وقد اكتسب هـذا الكتاب مع (المسند الصحيح) للامام مسلم بن حجاج القشيري (٢٦١هـ-٨٧٤-٨٧٥م) قيمة كبيرة بين مجاميع الحديث . واصبحا يذكران ب (الصحيحين) . ولم تنقطع ، بعد هذا ، التاليف التي تبحث عن الحديث فنشأ اربعة من كبار علماءالحديث وهم : أبو داود السجستاني (٢٧٥هـ-٨٨٨-٨٩٨م) ، وابوعيسى الترمذي (٢٧٩هـ-٨٩٢-٨٩٣م) ، وعبدالرحمن النسائي (٣٠٣هـ-٩١٥-٩١٦م) والدار قطني (٣٨٥هـ-٩٩٥-٩٩٦م) . وقد اشتهرت كتب هـؤلاء الستة بين العلماء ولحد الآن ، ب (الكتب الستة) . وعلاوة على هذا ، ان بعض المؤلفين يعتبرون كتاب ابى عبدالله محمد بن يزيد القزويني الشهير بابن ماجه (٢٧٤-٨٨٧م) متمما للكتب الستة . وقد انتشر هذا الرأي انتشارا كبيرا .

الفقـه

تعتبر الشريعة الاسلامية ، والتي تسمى بالفقه ، احدى نتاجات الحضارة الاسلامية المشتركة الاكثر الفاتا للنظر . وكانت الاقوام التي دخلت في بوتقة الدين الاسلامي مضطرة لقبـول الاحكام الفقهية والارتباط بها بغض النظر عما كانت تملك من مؤسسات تشريعية ، بيد انه ، ومن الطبيعي ، ان هذه الاقوام لم تنس تقاليدها التشريعية التي تعلقت بها عصورا عديدة قبل الاسلام بسهولة . فكان لهذه التقاليد اثرها في ازدهار الشريعة الاسلامية ، كما ان اختلاف الوجدان التشريعي عند الاتراك والعرب والفرس بعضه عن بعض ، هو بسبب هذا التاثير .

كانت المصادر الاولى للفقه – اي الشريعة الاسلامية – هي القرآن والحديث وبتعبير آخر ، الكتاب والسنة . ففي بداية انتشار الاسلام ، كان كل من الفقه والقراءة والتفسير والحديث ، يعتبر علما واحدا ، غير ان الفقه بدا ينفصل – كغيره – تدريجيا فادى بذلك الى نشـوء الفقهاء . وكان

تنظيم شؤون الحياة الاجتماعية كلها يقع على عاتق الفقهاء الذين اصبحت لفتاويهم ، اي الاحكام (الجزئية) التي استنبطوها من القرآن والسنة معنى وحكما ، اهمية كبيرة في الحياة العامة . وكانت الدعاوى الجزائية والتشريعية البسيطة حتى المسائل المعقدة ، سياسية كانت ام مالية او ادارية ، تتبع احكام ومؤثرات هذه الفتاوى . وكان الامويون ، الذين كانوا على درجة كبيرة من التعصب للعروبة ، يراجعون علماء المدينة في استفتائهم لاكثر المسائل المهمة . وفي العصر العباسي ظهر نمو وازدهار كبير في الفقه ، واصبح يلائم الانسياب العام للحضارة الاسلامية في هذا العصر . ولحد هذا الوقت ، انتشرت العلوم المتعلقة بالقرآن في كل من العراق وايران ايضا ونشأت نخبة ممتازة من العلماء . غير ان اهالي المدينة كانوا اكثر قابلية من اهالي الاماكن الاخرى كافة ، في مضمار حفظ الاحاديث وقراءة القرآن . فعلماء الحديث في العراق كانوا جد قليلين وعلاوة على هذا ، ان اهالي هذه الاماكن كانوا اكثر تقدما من الناحية الفكرية والعلمية بالنسبة الى اهالي الجزيرة العربية لانتمائهم الى اقوام ذات حضارات موغلة في القدم . وعندما تأسست الدولة العباسية ، اتخذ النفوذ الفارسي حالة ملموسة على الاسلام ، فبدأ العلماء في العراق يستندون على القياس في استنباطهم الاحكام الشرعية من القرآن والحديث . اما علماء المدينة ، وعلى رأسهم الامام مالك ، فانهم اكتفوا بالتقليد ، ولم يأخذوا القياس بنظر الاعتبار . وقام الخليفة العباسي المنصور بتقديم يد المساعدة الى فقهاء العراق الذين اتبعوا القياس وخاصة بعد ان افتى الامام مالك بخلعه ، وجلب الامام ابا حنيفة ، وهو اشهر فقهاء العراق ، الذي كان وقتئذ في الكوفة ، الى بغداد ، واعدا اياه بالاحسان واللطف ورعاية مذهبه ، وعلى هذا انقسم الفقهاء الى فئتين :

فالفئة الاولى ، التي سميت بأصحاب الحديث، لم يرجعوا الى القياس مطلقا لا سرا ولا علنا ما دام الخبر او الكتاب موجودا - اي امكان الاستناد على الكتاب والسنة - وكان هؤلاء هم علماء الحجاز الذين يقلدون الامام مالك ، وعلماء الحديث الذين كانوا يتبعون الامام الشافعي واحمد بن حنبل . اما الفئة الثانية فقد اشتهرت باسم اصحاب الرأي والقياس وكانت تتكون من العلماء العراقيين الذين يتبعون الامام الاعظم ابا حنيفة ، وعلى رأسهم الامام محمد بن الحسن والقاضي ابو يوسف . وكانوا يسندون الاحكام غير المنصوصة على الاحكام المنصوصة بطريق القياس مستندين في ذلك على العلاقات والتشبيهات الموجودة بين الاحكام المنصوصة والاحكام غير المصرحة وغير المنصوصة ، في حالة عدم وجود علاقة صريحة او ظاهرة في النصوص القطعية ، في جمل الاحاديث الجديدة ، اي كانوا يرون القياس بهذا الشكل جائزا ، بل كانوا يرجحون القياس الجلي على النص . وجاء بعد الامام مالك ، الامام الشافعي وهو على رأس متبوعيه . ودرس على علماء العراق وخاصة على تلميذ الامام الاعظم وقام بتفاعل اسس هذين المذهبين فانشأ مذهبا جديدا سمي باسمه (المذهب الشافعي) . ورغم ان الامام الشافعي كان يخالف الامام مالك في اماكن عديدة فانه يعتبر من اصحاب الحديث . وبعد هؤلاء ، اتخذ الامام احمد بن حنبل ، الذي يأتي على رأس كبار العلماء ، مذهبا جديدا ، وانحصر التقليد والتبعية في البلدان الاسلامية السنية في هذه المذاهب الاربعة وخاصة بعد ان زال تدريجيا اتباع المجتهدين الذين اختاروا لانفسهم مذاهب خاصة . ثم انسد باب الاجتهاد على مصراعيه . وقام علماء عديدون بدراسات متنوعة ضمن نطاق هذه المذاهب الاربعة فالفوا كتبا كثيرة ومهمة في الفقه الحنفي ، والفقه الشافعي ، والفقه المالكي ، والفقه الحنبلي ، وهكذا ازدهرت الشريعة الاسلامية ازدهارا كبيرا بعد ان اكتسبت اهمية كبيرة .

ويمكننا اضافة مذهب الظاهرية كعلاوة الى هذه المذاهب الفقهية السنية . وقد انشيء هذا المذهب من قبل ابي سليمان داود ابن علي الاصفهاني (٨١٥-٨٨٣م) . وانتشر في الهند وايران وخاصة بين الصوفيين ردحا من الزمن ، ورغم انه انقرض في هذه الاماكن الا انه وجد طريقه في المغرب والاندلس فازدهر فيها . اما اليوم فلم يبق له شأن يذكر . وفي خارج نطاق هذه المذاهب السنية فان للشيعة ، وخاصة الاثني عشرية منهم ، فقها ازدهر ازدهارا كبيرا . واظهر الزيدية كذلك - وهم فرقة شيعية قديمة - الى حد ما - ازدهارا في الفقه .

الكلام والفلسفة

ظهرت التيارات الفلسفية الاولى بين المسلمين منذ القرن الاول الهجري ، على شكل علم الكلام . وابتداء من عصر الخلفاء الراشدين ، نشأت فرق دينية متعددة على صدر الاسلام الذي انتشر في ساحة واسعة عاشت فيها فلسفات متعددة، واعتقادات مختلفة منذ العصور . ومن بين هذه الفرق اصبحت المعتزلة تعنى عناية كبيرة بالمسائل الفلسفية وتطرح نظرياتها في هذا المجال ، فواصل بن عطاء (٨٠-١٣١هـ-٦٩٩-٧٤٨م) الذي يعتبر اشهر واقدم شخصيات المعتزلة ، وعمرو بن عبيد (١٤٤ او ١٤٥هـ ٧٦١ - ٧٦٢م) ، قد طرحا آراء تخالف عقائد اهل السنة في مسائل الصفات الالهية والقدر والارادة الجزئية والامامة ، فنشأ بذلك (العلم الكبير) عندهم (المعتزلة) مقابل (الفقه الاكبر) عند اهل السنة . وبعد ان عرفت الآراء الفلسفية عند اليونان والفرس والهند والمسيحية واليهودية في المحيط الاسلامي عقب ظهور تيارات ترجمة الكتب اليونانية والايرانية والهندية .. الخ التي انتشرت انتشارا كبيرا منذ زمن المنصور (١٥٦هـ-٧٧٢م) والمأمون وخلفائهما ، عمل المعتزلة على الاستفادة من هذه النظريات بغية الدفاع عن عقيدتهم بقوة اكبر . فالتأثيرات الفلسفية اليونانية كانت واضحة وضوحا تاما على كبار علماء المعتزلة في عهد المأمون كأبي الهذيل العلاف (١٣٥-٢٢٦هـ ٧٥٢-٨٤٠م) وابراهيم النظام (٢٢١هـ-٨٣٥-٨٣٦م) .

وازاء هذه الاعمال التي قام بها المعتزلة لم يقف علماء اهل السنة مكتوفي الايدي ، فانشأوا علما خاصا بهم وهو (علم الكلام) وذلك بفضل جهود ابي كلاب البصري وابي الحسن الاشعري (٢٦٠-٣٢٤هـ ٨٧٣-٩٣٥م) الذي كان من مقدمي علماء المعتزلة ثم ترك الاعتزال فيما بعد . واكمل هذا العلم من قبل ابي بكر الباقلاني (٤٠٣هـ ١٠١٢-١٠١٣م) وابي المعالي الجويني المشهور بامام الحرمين (٤٧٨هـ ١٠٨٥-١٠٨٦م) . وفي هذه الاثناء كان علم الكلام عند اهل السنة قد مال في بعض موضوعاته الى آراء المعتزلة، عند اهل السنة قد مال في بعض موضوعاته الى اراء المعتزلة ، كما ان علم الكلام عند المعتزلة قد تغير تغيرا كبيرا بالنسبة الى سابق اوانه وبلغ حالة امتزج فيها كثيرا مع الفلسفة اليونانية . ونشاهد ان علم الكلام قد دخل مرحلة جديدة مع الامام الغزالي (٤٥٠-٥٠٥هـ ١٠٥٨-١١١١م) ، ففي زمنه استقرت النظريات التي تتعلق بالفلسفة اليونانية وازدهرت بين المسلمين بفضل الفارابي وابن سينا ، وادى الى نشوء زاوية لرأيين متضادين ، تقرر قبول كل ما يقوله الفلاسفة او رده . وقد عارض

الغزالي بكتبه المختلفة ، زاوية هذين الرايين ، وبهذا دخل رد المواضيع الفلسفية المخالفة للعقائد الاسلامية وابطالها كذلك الى علم الكلام . ثم بلغ علم الكلام عند أهل السنة حالة تفاعل فيها مع فلسفة ارسطو على يد فخرالدين الرازي والامدي (٦٣١هـ ١٢٨٣–١٢٨٤م) والبيضاوي (٦٨٩هـ ١٢٩٠–١٢٩١م) ، وهو مقبول بين علماء اهل السنة في هذا الوقت . ويتضح مدى التاثير الذي احدثته الفلسفة اليونانية تدريجيا في هذا المجال اذا ما قورن العلماء القدماء كالامام الاعظم مع هؤلاء المتاخرين من علماء اهل السنة في علم الكلام .

وفي خارج نطاق علم الكلام عند المسلمين ، فان التيارات الفلسفية الاصلية التي ظهرت بعد الاخذ من المصادر الاجنبية مباشرة كالهندية والايرانية واليونانية بصورة خاصة بعد القيام بترجمة الكتب التي تتعلق بالفلسفة اليونانية القديمة في العصر العباسي ، قد اكتسبت قوة بفضل الكندي (نحو ٢٦٠هـ ٨٧٣–٨٧٤م) والفارابي (٣٣٩هـ ٩٥٠–٩٥١م) بصورة خاصة . وانشا ابن سينا (٤٢٨هـ ١٠٣٧–١٠٣٨م) نظاما فلسفيا عظيما بعد ان قام باكمال وتركيب كافة العناصر الموجودة في كتب الفارابي . وبفضل الغزالي ، اكتسبت الفلسفة مكانة مرموقة في الدين الاسلامي ودخلت بقوة – كما ذكرنا – الى علم الكلام عند أهل السنة كذلك . اما الذين درسوا في نطاق علم الكلام والذين جاءوا بعد الغزالي ، فهم اولئك الفلاسفة الذين تعمقوا جيدا في فهم الفلسفة اليونانية وعلومها ضمن شكلها الاسلامي .

وتنهض بعض الرسائل الفلسفية التي ألفت من قبل جماعة اخوان الصفا المتشكلة في بغداد في القرن العاشر ، مع كبار الفلاسفة الذين نشاوا في الاندلس من امثال ابن رشد وابن ماجه وابن طفيل ، كل على حدة ، دليلا على ازدهار الآراء الفلسفية الاسلامية بصورة واسعة في نطاق الحضارة الاسلامية . والى جانب هذا ، اعتبر الذين اشتغلوا بالفلسفة زنادقة وملحدين في نظر الناس ، فاضطر هؤلاء – عدا الذين اشتغلوا في علم الكلام – ان يتستروا تحت ستار الدين او اكثر منه تحت ستار التصوف . واذا كانت مثل هذه التيارات الفلسفية لم تكن موجودة بين الاقوام الاسلامية ولم تنشر بنوة في ساحة واسعة ، فان الاداب الاسلامية وخاصة الاداب الايرانية والتركية لم تكن باقية بهذا القدر تحت التاثير الصوفي القوي .

التاريخ

اهتم العرب القدماء اهتماما كبيرا بالروايات التي تتعلق بماضي قبائلهم فحفظوها باذهانهم وتناقلوها من جيل الى اخر . وبعد انتشار الاسلام وفي الوقت الذي اهتم المسلمون بجمع القرآن والحديث والتفسير ، اصبحت هناك حاجة ماسة الى دراسة وتحقيق الاماكن التي نزلت فيها الآيات والتي قيلت فيها الاحاديث والى معرفة الشروط والاحوال التي سادت في هذه الفترة ، فجمعت المعلومات التي تبحث عن النبي ودونت ثم كتبت في نهاية الامر بعد ان ظلت متداولة بالحفظ والنقل ردحا من الزمن . وكان من الطبيعي ان تعود الدراسات التاريخية الاولى بين المسلمين بهذا الشكل الى السيرة . وبالرغم ان اول كتاب للسيرة قد الفه محمد بن اسحق (١٥١هـ ٧٦٨م) للخليفة العباسي المنصور – كما يستدل من الروايات المشهورة – الا انه قد كتب عليه الفقدان . ووصل الينا ما كتبه ابو محمد بن عبدالملك بن هشام (٢١٣هـ ٨٢٨–٨٢٩م) نقلا عن ابن اسحق .

اما الكتب التي تتعلق بالاماكن المفتوحة من قبل المسلمين فقد بوشر بتصنيفها في الوقت الذي كانت المحاولات جارية لوضع الخراج في البلدان المفتوحة . فقد كان من الضروري لحل مسالة الخراج ، معرفة كيفية الاستيلاء على بلد ما ، وهل تم عن طريق الحرب او الصلح او اعطاء الامان ، ونوعية الشروط التي تعلقت بها هذه البلدان . فبتاثير عوامل كهذه الف الواقدي (٢٠٧هـ ٨٢٢–٨٢٣م) كتابه فتوح الشام وابو القاسم عبدالله ابن عبدالحكم (٢٥٧هـ ٨٧٠–٨٧١م) كتابه فتوح مصر والمغرب . واكتسب هذا النوع من الكتب التي تتعلق بالفتوحات الاسلامية رغبة كبيرة بين الناس وامتزج بها قسم من العناصر القصصية والملحمية لكونها على غرار حكايات بطولية دينية ولهذا كادت ان تفقد قيمتها او ماهيتها التاريخية . غير ان المؤرخين الذين نشاوا بعد هذا التاريخ صنفوا كتبا عامة بعد ان قاموا بجمع المعلومات المتشتته عن المدن والبلدان كل على حدة ، ككتاب فتوح البلدان للبلاذري (٢٧٩هـ ٨٩٢–٨٩٣م) الذي يعتبر اقدم النتاجات التي وصلت الينا بعد كتاب الواقدي .

ومن الاصناف التاريخية التي تطورت في البداية عند المسلمين : التراجم المسماة بالطبقات والتي خصصت للمحدثين والمفسرين والفقهاء والعلماء والادباء والإطباء والمشتغلين بعلم الكلام وبالاجمال كل ما خصص لاصحاب المهن المختلفة . وحدت الاهمية التي حظت بها الاسناد في مسائل التفسير والحديث الى ضرورة جمع المعلومات المتعلقة برواة الاسناد المشتغلين في العلوم الاسلامية . وكان لهذا اثره الكبير في نشوء كتب الطبقات . ثم ظهرت الكتب العامة في التراجم بعد ان استوعبت المعلومات التي تحويها كتب الطبقات المتفرقة ككتاب ابن خلكان المشهور . والى جانب هذا ، صنفت تواريخ خاصة بالمراكز الاسلامية المهمة كدمشق وبغداد وحلب والقاهرة ...الخ والتي تحوي معلومات قيمة تتعلق بالذين نشاوا في هذه المدن او الذين سكنوا فيها من المشهورين كالشخصيات التي لها شان في الميادين العسكرية والمدنية والعلماء والشيوخ والشعراء . ويعتبر كتابا تاريخ دمشق لابن عساكر وتاريخ بغداد للخطيب البغدادي البالغ كل منهما حوالي ٨٠ جزء ، من اهم الكتب التي ظهرت في هذا اللون .

كانت الكتب التاريخية عند المسلمين تنحصر في كتب السير والمغازي والطبقات والفتوحات حتى النصف الثاني من القرن التاسع ، حيث لم تصادف كتب تتعلق بالامم الاخرى ولم ترتب ترتيبا تاريخيا عاما . بيد انه صنفت الكتب تدريجيا في هذا المضمار نتيجة للتوسع الذي حدث في العلاقات مع مختلف الامم والحضارات المتجاورة .

فنعرف ان كتاب اليعقوبي كان بداية لهذه الكتب وهو يقع في جزاين يتعلق اولهما باليهود والهنود واليونانيين والايرانيين وسائر الاقوام القديمة ويبحث الجزء الثاني عن التاريخ الاسلامي منذ بداية ظهور الاسلام حتى سنة ٢٥٦هـ ٨٦٩–٨٧٠م . ويعتبر التاريخ المشهور والكبير الذي الفه ابن جرير الطبري (٣١٠هـ ٩٢٢–٩٢٣م) اول كتاب صنف في التاريخ العام بعد تاريخ اليعقوبي ، وهو يضم بين دفتيه الحوادث حتى سنة ٣٠٢هـ ٩١٤–٩١٥م . ثم اضيفت اليه حوادث عشر سنوات اي حتى سنة ٣١٢هـ ٩٢٤–٩٢٥م من قبل الفرغاني . ويعتبر المسعودي (٣٤٦هـ ٩٥٧–٩٥٨م) مؤلف مروج الذهب اقدم مؤرخ ظهر بعد الطبري . ويضم كتابه هذا معلومات قيمة تتعلق بالجغرافية اضافة الى الحوادث التاريخية وقسم الى ابواب خصصت للدول او الاقوام . وبالرغم ما يذكر من

ان لمروج الذهب نسخة مفصلة الا اننا لم نعثر عليها . وقد وصلنا من هذا المؤرخ الكبير كتابان هما : مروج الذهب الذي هو مختصر لاخبار الزمان الذي لم نقع على اية نسخة منه الى اليوم ، وكتاب التنبيه والاشراف الذي يتكون من جزء واحد مختصر (وقد ترجم هذان الكتابان الى اللغة الفرنسية) . وازدهر شكل التاريخ ازدهارا كبيرا بعد سقوط الدول التي انشأتها السلالات العربية - كالعباسيين في بغداد والفاطميين في مصر والامويين في الاندلس - وخلت محلها دول اسستها اقوام مسلمة كالاتراك والفرس والبربر : ففي الوقت الذي كان يدرس تاريخ السلالات التي تشكلت حديثا والاقوام التي انشأتها ، وضعت كذلك كتب معتمدة وكاملة وذلك بعد الاستفادة والنقل من التواريخ القديمة المختلفة . وينبغي الا نغفل الكتب التاريخية المهمة التي صنفت في زمن الغزنويين والسلاجقة ونم في اثناء سلطنة حكماء الاتراك والجراكسه في مصر . اما الكتب المهمة العامة التي صنفت بعد السيطرة المغولية ، فان كتاب الكامل لابن الاثير (٦٣٠هـ ١٢٣٢-١٢٣٣م) على الاخص يعتبر اهم هذه الكتب وهو على غرار تاريخ الطبري ، صنف على اساس الترتيب السنوي . ثم اشتهر الوزير رشيد الدين طبيب مؤرخ العصر المغولي بكتابه جامع التواريخ . وجاء بعده ابو الفداء (٧٣٢هـ ١٣٣١-١٣٣٢م) الذي قام باختصار كتاب الكامل واضاف اليه فصنف كتابه المشهور . واخيرا بلغ التاريخ اعلى مستواه عند المسلمين بظهور ابن خلدون (٨٠٨هـ ١٤٠٥-١٤٠٦م) فمقدمته هي في ماهية نوع من فلسفة التاريخ . وكان لهذا المفكر الكبير من القدرة بحيث كان يستشرف الاحداث كاملة واحدث نوعا من التجارب في علم الاجتماع كان له شانه بالنسبة الى زمانه .

واذا اخذ بنظر الاعتبار اعمال هؤلاء المؤرخين المسلمين والمؤرخين الكبار من امثال النويري والذهبي والمقريزي والسيوطي وابي المحاسن ... الخ فانه يستدل حالا ما جادت به الحضارة الاسلامية من ازدهار عظيم . ولم يقتصر بحث المؤرخين المسلمين على الاقوام المسلمة فحسب بل بحثوا كذلك وبصورة جدية تاريخ الاقوام الاخرى . ومما يؤخذ على هؤلاء المؤرخين انهم نقلوا الاحداث الى كتبهم كما هي دون الاهتمام كثيرا بناحية البحث والنقد فحصروا كتبهم في الغالب في البحث عن الحروب والعزل والتعيين . ولم يتطرقوا الى النواحي الاجتماعية والاقتصادية ، اي مايشكل الوجود الاصلي للشعب ، الا بايجاز وبصورة غير مباشرة . كما يلاحظ ان في بعض الكتب التاريخية التي كتبت بامر احد ما او اهداء اليه فان الحقائق تتغير وفق هوى الشخص الذي امر بكتابتها . اضافة الى هذا لم يتردد المؤرخون المسلمون من ادخال الغرائب التي تدهش القارىء الى كتبهم ومع هذا فانهم لم يكونوا سذجا بكل معنى الكلمة . فبين الذين نشاوا بعد اتصالهم بالعلوم والفلسفة اليونانية والهندية عن كثب - رغم الشروط الدينية في العصور الوسطى - لم يكن المؤرخون قلائل فقد كانوا على درجة كبيرة من الحياد وذوي قدرة فائقة على فهم الاحداث وادراكها وتجسيدها واحيائها وفي الادوار الاخيرة التي حازت فيها الفنون اللفظية اهمية كبيرة نشأ المنشئون الذين لم يترددوا في كتابة التاريخ باساليب مسجعة ومصطنعة وبالرغم من هذا ، لم يقل المؤرخون الحقيقيون الذين لم يعيروا اهتماما لالاعيب الكلمة . وخاصة ابن خلدون الذي يعد في نفس مرتبة كبار مفكري اليونان والروم والقرون الوسطى وذلك من ناحية كونه عالما في فلسفة التاريخ والاجتماع .

وادى ضعف الخلافة العباسية الى سرعة كبيرة في نمو التاريخ وازدهاره في العالم الاسلامي . ونشأ ادب تاريخي على درجة كبيرة من الاهمية والغنى في كل من اللغتين الفارسية والتركية كالكتب المتنوعة التي تتعلق بكل شعب التاريخ في اللغة العربية . وكان للسلالات الحاكمة والدول المختلفة التي اسست في ايران والاناضول والهند قبل السيطرة المغولية وبعدها ، مؤرخون مهمون ، رسميون وغير رسميين .

الجغرافية

بدا المسلمون ، تحت عوامل تشريعية وادبية بالاشتغال في مجال الجغرافية في الوقت الذي احتكوا بالحضارات القريبة منهم قبل تأثرهم بالحضارة اليونانية . غير ان هذا قد بقي في البداية منحصرا في شبه الجزيرة العربية فقط . حيث كان من الضروري معرفة ما ورد في الادب العربي القديم من التلميحات الكثيرة المتعلقة بالاماكن التي عاشت فيها القبائل . اما البلدان الواقعة خارج الجزيرة العربية فكانت العوامل التشريعية هي التي ادت الى وضع الكتب الاولى المتعلقة بها . ولم تقتصر الحاجة الى معرفة تاريخ هذه البلدان فحسب ، بل ان معرفة جغرافيتها كانت ضرورة ادارية وتشريعية ، لان احكام الجزية والخراج والمقاطعات .. الخ كانت تتغير بحكم نوعية الفتح ولا ينكر ما كان للسفر الى البلدان المختلفة بقصد التجارة او الجندية او الحج او جمع المعلومات العلمية ، من اثر في ازدهار الدراسات الجغرافية .

ان التاثيرات اليونانية التي بدات في زمن الخليفة المنصور وتطورت بسرعة في امد قصير ، ادت الى تقدم مهم في هذا المضمار . فكتابا بطليموس : الجغرافية - الذي كان يحوي كافة التفصيلات المعروفة حتى زمانه - ، والمجسطي - الذي كان يحتوي على كافة المعلومات الكوزموغرافية (الكونية) في ذلك العصر - قد ترجما الى اللغة العربية ، وبدأ الجغرافيون المسلمون بالبحث ضمن هذا الاساس وبهذه الطريقة . ويعتبر ابو زيد البلخي صاحب كتب صور الاقاليم ، اول من الف في هذا المجال ، وقد بدا بكتابة كتابه هذا ، في بداية القرن العاشر ، مقسما البلدان الاسلامية الى عشرين قسما ، وقدم معلومات عنها كل على حدة . ونشا في هذا القرن كذلك ، الاصطخري الذي كان مولعا بالرحلة فاشغل نفسه دائما بها والف كتابه المشهور بعد ان اتخذ كتاب البلخي اساسا يعول عليه في الكتابة واضاف اليه معلوماته . وقسم الاصطخري - كالبلخي - البلدان الاسلامية الى عشرين قسما وقدم معلومات لكل منه . ثم جاء ابن حوقل فاكمل كتاب الاصطخري مضيفا اليه ما جمعه من رحلاته ومشاهداته الشخصية وعمل لكل اقليم خارطة بين فيها المدن والجبال والانهار . ويعتبر هذا الدور الاول ، الذي نشات فيه الشخصيات كابن خرداذبة وابن الفقيه الهمداني والمقدسي والمؤرخ المسعودي ، الدور الكلاسيكي لتاريخ الجغرافية الاسلامية . اما كتب الجغرافية التي ظهرت بعد هذا الدور ، فقد كتبت بصورة عامة معتمدة على المعلومات التي جمعها هؤلاء المؤلفون الاوائل ولم يطرأ عليها الا تغييرات طفيفة . فكتاب الشريف الادريسي (المتوفى سنة ٥٧٦هـ ١١٨٠-٨١م في صقلية) والموسوعة الجغرافية التي صنفها ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ ١٢٢٨-٢٩م) والذي رتبها على الحروف الابجدية ، وكتاب تقويم البلدان للمؤرخ ابى الفداء ، كل هذه الكتب هي من هذا اللون .

واذا اردنا تلخيص ما عمله المسلمون في نطاق الدراسات

الجغرافية بشكلها العام فينبغي القول قبل كل شيء ، بانهم لم يغادروا المناهج اليونانيـة القديمـة . فمثـلا فـكرة الاقاليـم السبعة المحصورة في داخل صف واحد ، من الجنوب الـى الشمال ، في الاقسام المسكونة من الارض ، وكذلك نظرية تقسيم الكرة الارضية من الغرب الى الشرق الى قسمين بسلسلة جبال، موجودة عند الجغرافيين المسلمين ايضا ، كما ان المسلمين لم يتخلصوا من الاراء الاساسية عند بطليموس في نظم الكائنات . واحتفظوا بهذه الآراء باخلاص عبر العصور . بيد ان الجغرافية الاسلامية كانت اكثر تفوقا بالنسبة الى الجغرافية اليونانيـة وذلك من ناحية توسع المعلومات الجغرافية التي جمعها المسلمون وصحتها . ولم تقتصر الكتب الاسلامية المتعلقة بالبلدان الاسلامية على ذكر الظروف الاقليمية والطبيعية فحسب بل تحوي كذلك معلومات صحيحة وموسعة عن الحياة الاجتماعية وعن تقدمهـا المادي والمعنوي . ولم تقتصر المعلومات التي جمعها الجغرافيون المسلمون في مجال الجغرافية على البلدان الاسلامية فحسب بل حصلوا على معلومات عن البلدان البعيدة في الشرق والغرب ، فقد عرفت وبشكل جيد الطرق التجارية البرية والبحريـة الرئيسة . وكتب الجغرافي الالماني راتزل Ratsel هذه الاراء عن الجغرافية عن المسلمين في كتابه الموسوم (الارض والحياة):ـ

« ان الجغرافية عند العرب قد بنيت على الجغرافيـة اليونانية ولم تتمكن ان تظهر تقدما زائدا من ناحية النظريات . غير انهم أستفادوا وبشكل جيد من المعلومات الموجودة عن شكل الارض واتساعها . وصححوا كثيرا من النظريات المتعلقة بالارض الا انهم تخلفوا في رسم الخرائط فجاءت اكثر تخلفا من خرائط بطليموس التي ترجمت الى العربية لاول مرة في القرن التاسع . وتوسعت النظرة الجغرافية العربية توسعا كبيرا اثناء حكمهم في شمالي افريقيا وغربي اسيا والذي دام عصورا عديدة : وتشبه دراسات العرب في الجغرافية الى حد كبير ، ما كان عند جغرافيي روما حيث لازمت الامور العسكرية والسياسية جل اهتمامهم . وكان الرحالة العرب يتكونون من علماء الدين والوفود السياسية والعلماء وغيرهم ... وكان اهتمـام الجغرافييـن العـرب الاصلي يشمل ما يذكرونه من اوصاف البلدان والناس وكـان هؤلاء يجمعون مذكراتهم السياسية بقصد تعلم الاخرين وتناقل القصص والنوادر . وكان الخلفاء يلزمون الرحالة المتوافدين من الخارج ، ليحدثوهم عن القصص التي تتعلق بالبلدان التـي زاروها . وجمع الرحالة العرب كمية كبيرة من المعلومات بفضل الترجمة من الكتب اليونانية . وبهذه الصورة عرفوا كروية الارض وتعيين طولها واتساعها . وكانت التجارة والطرق والمدن تؤخذ بنظر الاعتبار اكثر مما كان عليه اليونانيون . واخيرا ينبغي علينا ان نعترف بفضل المسلمين في الدراسات الجغرافية والذين ابدوا تقدما كالذي قدموه في التاريخ او قريبا من هذا حسب الامكـــان .

* * *